السورية التي حاولت الغاء استقلالية اللبنانيين، والفلسطينيين، لم تبرهن، خلال أكثر من عقد من السنين، على جدواها؛ بل برهنت على انها مكلفة، ومؤذية، للسوريين والفلسطينيين واللبنانيين؛ حيث أدت هذه السياسة الى استنزاف جهود سوريا، والمنظمة، في حروب ومعارك جانبية، فيما لم تستطع سوريا، في تدخلها، الحؤول دون قيام اسرائيل، بالتحالف مع المارونية السياسية في لبنان بعد ذلك، لاخراج سوريا والمنظمة من لبنان. وغني عن الاشارة، ان الازمة اللبنانية بقيت بدون تسوية وحل.

والواقع، ان الفشل السوري في لبنان يجب ان ينظر اليه من زاوية التناقض بين اتجاه الحرب الاهلية اللبنانية والمسار السياسي الذي افتتحه الرئيس السوري لاعادة الاعتبار لوزن سوريا الاقليمي في المنطقة؛ ذلك ان انفجار الحرب الاهلية لم يكن وليداً للعوامل المحلية فقط: تناقض بنية النظام مع الثورة، واحتدام التوازنات الطائفية الهشة؛ وانما كان تعبيراً عن نهاية مرحلة عاشتها المنطقة. وفي هذا الالتباس، ينبغي، أيضاً، ان نبحث في الدوافع التي أملت على المارونية السياسية تفجير الصدام، واستدراج المنظمة الى الحرب، باعتبار ان ذلك محصلة للمسار الذي شقته سياسة كيسنجر في المنطقة، التي أدت الى نسف التضامن العربي، مع بروز نزعة الانكفاء نحو الذات في السياسة المصرية، والتحول نحو البناء الداخلي الذي طغى على توجهات العديد من دول المنطقة، وتضخم النزعات الاقليمية عند بعض الدول العربية الاخرى، التي حاولت سد الفراغ الذي خلّفه الانكفاء المصري، في مشاريع لم تؤد الا الى تآكل الجهود العربية في صراعات لا تخدم النضال المشترك ضد اسرائيل؛ وهو المسار الذي توج، أخيراً، بالمصالحة مع اسرائيل، وتكريس اللقاء بالغرب، الذي عاد يتحكم في احتكار مقادير المنطقة سياسياً واقتصادياً.

لذلك، فان ذهاب المارونية السياسية الى الحرب، في العام ١٩٧٥، كان يتقاطع مع سياق مؤات في المنطقة، اعتقدت المارونية السياسية بأنه يتيح لها فرصة تاريخية لأن تعيد صياغة النظام السياسي اللبناني بصورة تضمن لها تحقيق أكبر قدر من السيطرة على الدولة، بعد تعديل التوازن الهش، والضعيف، ليصبح توازن قوة يعمل لصالحها. ولهذا سعت المارونية السياسية، قبل كل شيء، الى التخلص من الوجود الفلسطيني المسلح في لبنان، الذي يشكل مصدر التهديد المباشر للخطط السياسية لحزب الكتائب. والواقع ان المخطط الكتائبي كان يتقاطع مع الاستراتيجية الاسرائيلية في المنطقة، وليس مع الاستراتيجية السورية؛ حيث تبنّت الاولى هدفاً رئيساً، في صلب استراتيجيتها، يقوم على تفتيت المنطقة واضعافها، من خلال استغلال التنوع الاثني، ومشكلة الاقليات في العالم العربي. ولهذا السبب، أيضاً، كان اللقاء بين سوريا والمارونية السياسية حول هدف اضعاف م.ت.ف. في لبنان، لقاء عابراً، ومؤقتاً، تكتيكياً؛ بينما كان اللقاء مع اسرائيل لقاء على المستوى الاستراتيجي، تحكمه ايديولوجيا المصالح المشتركة، والطموح التاريخي في اقامة دولة الطائفة والاقلية؛ الطائفة التي لا يستتب لها الامان الا بالغاء الآخرين. وهكذا كانت الحرب الاهلية في لبنان. فالحرب التي فجرتها المارونية السياسية استهدفت الطوائف اللبنانية الاخرى، ونسف صيغة الاتفاق التاريخي في العام ١٩٤٣[٥٠]، الذي تمت على اساسه اقامة النظام السياسي اللبناني، واستقلال لبنان.

وهكذا لم يكن مصادفة تزامن قيام بيار الجميل والسادات بمغامرتيهما بالاتصال مع اسرائيل في آن تقريباً[٥١]. لقد قامت المارونية السياسية باكمال حلقة المعادلة المفقودة في تغيير وجهة تحالفها مع سوريا، واستبدال هذا التحالف مع اسرائيل؛ تماماً، كما فعل السادات بزيارته للقدس في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٧؛ وذلك على الرغم من الاختلاف الشكلي في الوسائل التي انتهجها كلاهما